كلا ، وربك ! ...

فى قليل من التدبر مايجلو عن النفس غشاوة اليأس ! ...

هذا المظهر السيء الذى يبدو فى الناس ، كثر عددهم أو قل ، لا يستمد السوء كله من طبع فاسد وشر متأصل ، وإنما هى عوامل البيئة أوحت وألهمت ، وملابسات العهد أغرت وأوعزت ، والبيئة تتحكم ، والملابسات تدفع ، والنفس تغرها ألوان الملذات والمتع ، وتخدعها فرص الكسب والاغتنام ، فتنساق إليها ماوجدت طريقاً يأمن سالكه من خوف أو يسلم من ملام ! ...

أعجوبة الأعاجيب — فيما أظلته السماء — هذه النفس البشرية فهى مستودع المفارقات والأضداد ، وهى للخير والشر كليهما ولود وإن قواها وملكاتها لتظل حبيسة غافية ، يجهلها صاحبها أو يكاد ، ولا يعرفها له صاحب أوعشير ؛ فمن تلك القوى والملكات مايستيقظ فى أناة ومهل ، فينمو نموه الطبيعى طوراً بعد طور ، ومنها ماينبعث من أغواره بغتة كأنه الحمم ينفجر بها بركان ، وذلك كله إنما يجرى وفق البيئات وطوع الملابسات . فالنفوس خيرة حيث يكون الخير موفورة دوافعه ، وهى شريرة حيث يتوهج الشر حولها ، يثير فيها طوايا الأهواء والنزوات ! ...

مسكين هذا الإنسان ! ...